قال رحمه الله تعالى:

[فصل (غزوة تبوك وهي غزوة العسرة) : ولما أنزل الله ﷻ على رسول ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] **ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد وأعلمهم بغزو الروم ، وذلك في رجب من سنة تسع ، وكان لا يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، إلا غزوته هذه فإنه صرَّح لهم بها ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته ، وذلك حين طابت الثمار وكان ذلك في سنة مجدبة ، فتأهب المسلمون لذلك . وأنفق عثمان بن عفان ﷺ على هذا الجيش وهو جيش العسرة مالاً جزيلاً فقيل: ألف دينار ، وقال بعضهم : إنه حمل على ألف بعير ومائة فرس وجهَّزها أتم جهاز حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خطاماً ﷺ. ونهض ﷺ في نحوٍ من ثلاثين ألفاً ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة ، وقيل : سباع بن عرفطة ، وقيل : علي بن أبي طالب ﷺ . والصحيح أن علياً كان خليفة له على النساء والذرية ، ولهذا لما آذاه المنافقون فقالوا تركه في النساء والذرية ، لحق رسول الله ﷺ فشكا إليه ذلك ، فقال : " ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي " ، وقد خرج معه عبد الله بن أبيّ رأس النفاق ثم رجع من أثناء الطريق . وتخلف عن رسول الله ﷺ النساء والذرية ومن عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظهراً يركبه أو نفقة تكفيه ، فمنهم البكاؤون وكانوا سبعة : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن الحُمام ، وعبد الله بن المغفل المزني ، وهرمي بن عبد الله وعرباض بن سارية الفزازي ﷺ. وتخلف منافقون كفراً وعناداً وكانوا نحو الثمانين رجلاً . وتخلف عصاة**

مثل : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية . ثم تاب الله عليهم بعد قدومه ﷺ بخمسين ليلة] .

****

هذا الفصل عقده المصنف رحمه الله تعالى للحديث عن غزو تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة وكانت بعد حصار الطائف بستة أشهر تقريباً ، وهذه الغزوة تسمى غزوة تبوك لأن البلد المقصود بهذه الغزوة هو تبوك وهو يقع شمال جزيرة العرب إلى جهة الشام ، وتسمى أيضاً غزوة العُسرة لأن الناس في تلك الأيام في شدة وجهْد وحاجةٍ وقلة زادٍ ونهضوا مستجيبين لنداء الله ﷻ ولدعوة الرسول ﷺ كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧] وترتب على هذه الغزوة المباركة توطيد الإسلام في تلك النواحي والتمكين له ؛ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية تمهيدٌ وتهيئة لما سيكون بعدها – ويسَّره الله ﷻ فيما بعد – من فتوحات في الشام وما وراء تلك الديار .

قال المصنف رحمه الله تعالى: ((**ولما أنزل الله على رسول** ﷺ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ **ندب** ﷺ **أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد**)) ؛ وبهذا يُعلم أن سبب هذه الغزوة هو نزول هذه الآية على النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي كُتب المغازي تُذكر أسباب لكن السبب الواضح لقيام النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الغزوة أنه لما نزلت عليه هذه الآية الكريمة المشتملة على الأمر بمقاتلة أهل الكتاب قام النبي عليه الصلاة والسلام بذلك وندب ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد .

قال : ((**وأعلمهم بغزو الروم**)) ؛ يعني عيَّن لهم الجهة التي هو ذاهب إليها ، وكان من عادته عليه الصلاة والسلام يندب للجهاد ولا يعيّن الجهة حتى لا يُعلم بأمره وبخبره ، إلا هذه الغزوة أعلمهم بأن الجهة المقصودة بالغزو الروم.

((**وذلك في رجب من سنة تسع**)) للهجرة ، قال الحافظ ابن حجر "بلا خلاف" .

((**وكان لا يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها**)) ؛ إذا كان يريد مثلاً جهة الشمال في غزوه وقد بدأ يهيئ الجيش يسأل عن الطريق في جهة الجنوب ، ويسأل عن أمور حتى يظن الناس أن وجهته إلى الجنوب وليست إلى الشمال .

قال : ((**إلا غزوته هذه ، فإنه صرَّح لهم بها ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته**)) ؛ المسافة طويلة جداً ، والعدو أيضا شديد وكثير ؛ فأعلمهم حتى يستعدوا استعداداً تاماً ويتهيئوا تهيئاً عظيماً لملاقاة هذا العدو .

قال : ((**وذلك حين طابت الثمار**)) ؛ كان الخروج من المدينة حين طابت الثمار ، والنفس في مثل هذا الوقت تتشوَّف إلى أن تستمتع بالرطب والتمر حين يطيب ، وهذا امتحان آخر .

قال : ((**وكان ذلك في سنة مجدبة**)) ؛لم يكن معهم زاد .

((**فتأهب المسلمون لذلك**)) ؛ على قلة من الزاد ومع ذلك نهضوا مستجيبين لأمر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . وهذا من أوضح الدلائل وأبينها على سرعة استجابة الصحابة ﷺ لأمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام وعِظم رغبتهم فيما عند الله ﷻ من عظيم الثواب وكريم المآب .

ودعا النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة إلى الجهاد بالمال أولاً وبذله والإنفاق منه في سبيل الله .

((**وأنفق عثمان ابن عفان على هذا الجيش وهو جيش العسرة مالاً جزيلاً**)) ؛ فأنفق ألف دينار ، وبدأت منافسة عظيمة جداً في الإنفاق ، كلٌ ينفق مستطاعه وجهده ، جاء عبد الرحمن ابن عوف ﷺ وأنفق نصف ماله في سبيل الله ، وعثمان أنفق نفقة سخية حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال له على إثر تلك النفقة : ((مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ)) ، وكانت منافسة عظيمة حتى إن الفقراء من الناس والذين لا يجدون شيئاً إلا قلة كان بعضهم يأتي بنصف صاع من الطعام أو صاع من الطعام في هذه المنافسة العظيمة في الإنفاق في سبيل الله ؛ لأن هذا جهده ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:٧٩] هذا الذي عنده فقدّمه ، قد يكون الفقير عنده صاعان من الطعام فإن أنفق صاعاً منها يكون قد أنفق نصف ماله . وفي هذا المعنى يقول عليه الصلاة والسلام : ((سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ

دِرْهَمٍ)) قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: ((كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا)) ، ولهذا لا يتقالّ الإنسان نفقة يعطيها، هذا النصف صاع قد يغلب أشياء كثيرة جداً ، لأنه قد يكون هو رأس مال الإنسان أو ما يملكه أو يكون نصف مال الإنسان ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)) يعني نصف تمرة تفيد الإنسان وتنفعه ، وجاء في الحديث : ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ)) تمرة تكون مثل الجبل يوم القيامة !! فلا يتقال الإنسان العطاء .

الشاهد أن بعض المسلمين من الفقراء جاؤوا في ذلك اليوم وقدَّموا الشيء القليل الذي يجدونه ؛ فكان من المنافقين الهمَّازين اللّمازين الوقيعة في هؤلاء وفي هؤلاء ، فلما جاء أصحاب اليسار وقدموا الأموال الطائلة قال المنافقون : هؤلاء يراؤون ، ثم لما جاء الفقراء وقدموا القليل قالوا : إن الله عن صدقة هؤلاء لغني ؛ فاشتغلوا باللّمز تهويناً من أعمال البر وأعمال الخير وأعمال العطاء .

ولهذا يستفاد من هذا فائدة : أن الأعمال المشروعة المأمور بها لا يجوز للإنسان أن يخوض فيها لمزاً وهمزاً ووقيعةً ، بل الواجب على الإنسان أن يقبل ظاهر الناس ، فإذا أنفق قلَّ أو كثر في عمل مبارك يُحمد له ويُثنى عليه ويُدعى له على عمله وصنيعه ، أما أن يقع الإنسان في عرضه ويتهم نيته ويطعن في عمله أو نحو ذلك فهذا كله ممّا حرمه الله وهو من أعمال أهل النفاق .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ((**وأنفق عثمان ابن عفان على هذا الجيش وهو جيش العسرة مالاً جزيلا ، فقيل : ألف دينار ، وقال بعضهم : إنه حمل على ألف بعير ومائة فرس وجهزها أتم جهاز حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خطاماً**)) ؛ يعني جهَّزها جهازاً كاملاً .

((**ونهض ﷺ في نحو من ثلاثين ألفاً**)) ؛ وهذا أكبر جيش قاده النبي عليه الصلاة والسلام في حياته ، هذه آخر غزوة غزاها عليه الصلاة والسلام والجيوش التي مرت معنا لم تصل هذا العدد ولم تقاربه ؛ في فتح مكة عشرة آلاف ، وفي غزوة حنين زاد على ذلك ألفان تقريباً ، أما هنا ثلاثون ألفا .

وهذا العدد الكبير الذي خرج مع النبي عليه الصلاة والسلام في مثل هذا الوضع الصعب والسنة المجدِبة والمسافة الطويلة والعدو الشديد أيضاً ؛ يدل على صدق الرغبة وسرعة الاستجابة وعظم الهمة وعلوِّها في نصرة دين الله جل وعلا والاستجابة لداعي الجهاد لنصرة دين الله ﷻ .

قال : ((**واستخلف على المدينة محمد ابن مسلمة ، وقيل سباع ابن عرفطة ، وقيل علي ابن أبي طالب** ﷺ)) .

قال : ((**والصحيح أن علياً كان خليفة له على النساء والذرية**)) ؛ استخلفه عليه الصلاة والسلام على النساء والذرية ، وطاله في هذا الأمر أذى المنافقين وتكلموا فيه ﷺ .

((**ولهذا لما آذاه المنافقون فقالوا : تركه في النساء والذرية**)) ؛ ونحن نعرف من هو علي ﷺ في القتال ومواقفه المشيدة المشرفة العظيمة التي كانت منه في غزوات النبي عليه الصلاة والسلام ، وعندما يُدعى للبراز أول من يتقدم ﷺ ، وكم من رؤوسهم من قُتل على يده ﷺ ، وبقي مستجيباً للنبي عليه الصلاة والسلام فآذاه المنافقون بالكلام قالوا : "تركه مع النساء والذرية" .

((**فلحق رسول الله** ﷺ **فشكا إليه ذلك**)) ؛ لحق النبي عليه الصلاة والسلام في أول الطريق في الجرف لعله يأذن له في المضي معه ﷺ في القتال ، وذكر له ما تحدَّث به من تحدَّث ونيلهم منه ﷺ .

فقال عليه الصلاة والسلام : كذبوا ، ثم قال له ﷺ : ((**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي**)) ؛ وهذه منقبة وفضيلة لعلي بن أبي طالب ﷺ ، والحديث بهذا مُخرج في الصحيحين.

قال : ((**وقد خرج معه عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، ثم رجع من أثناء الطريق**)) ؛ وأيضاً حدث أنه بعد غزوة تبوك كانت وفاة هذا المنافق ، وأيضاً جاء في النصوص أن النبي ﷺ صلى عليه ثم جاء النهي عن الصلاة على من كان على هذه الصفة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤] .

قال : ((**وتخلف عن رسول الله** ﷺ **النساء والذرية ، ومن عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظهراً يركبه أو نفقة تكفيه**)) ؛ فهؤلاء معذورون : نساء ، وذرية ، ورجال معذورون

لأنه ليس عنده نفقة ينفقها وليس عنده أيضاً ظهر يركبه ، والصحابة الذين خرجوا لتبوك كان بعضهم يعتقِب الثلاثة على البعير الواحد .

قال : ((**فمنهم البكاؤون**)) ؛ بكاؤهم لهفاً وشغفاً في المضي مع رسول الله ﷺ لكن لا حيلة لهم ، ولا يجدون شيئاً يقومون به حتى يمضون ، لا نفقة ولا ظهر ، وجاءوا للنبي عليه الصلاة والسلام ليحملهم فما كان عنده عليه الصلاة والسلام ما يحملهم عليه ، فرجعوا يبكون من شدة اللهف والرغبة .

ثم عدد أسماءهم فقال : ((**وكانوا سبعة : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن الحمام ، وعبد الله بن المغفل المزني ، وهرمي بن عبد الله وعرباض بن سارية**)) ؛ علبة ابن زيد لما رجع وهو يبكي لهفاً وشوقاً وطمعاً في أن يكون من هؤلاء ، وهو في بكائه أخذ يناجي ربه ﷻ بهذه المناجاة يقول : ((اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغِبتُ فيه ، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ ، ولم تجعل في يد رسول الله ﷺ ما يحملني عليه ، وإني أتصدَّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض)) ، وجاء أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبره أن الله غفر له ، وهذا يدل أن باب الدرجات العلا ونيل المغفرة ورحمة الله ﷻ وفضله باب واسع ، وهؤلاء الذين حبسهم العذر شريكون للذين ذهبوا في الأجر، ولهذا جاء في صحيح البخاري من حديث مالك ابن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك ودنى من المدينة قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: ((وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ)) فهم مع الصحابة في شوقهم وفي رغبتهم لكن العذر هو الذي حبسهم وهو الذي منعهم ؛ فهذا يدلنا على أن فضل الله ﷻ واسع وأن الإنسان بنيَّته الصالحة يبلغ الدرجات العلا والمنازل الرفيعة إذا كان الذي حبسه عن العمل العذر .

قال رحمه الله : ((**وتخلَّف منافقون كفراً وعناداً وكانوا نحو الثمانين رجلاً ، وتخلف عصاة مثل : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية . ثم تاب الله عليهم بعد قدومه ﷺ بخمسين ليلة**)) ؛ لو نلاحظ في ضوء السرد الذي سرده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى لمن تخلفوا عن الذهاب لغزوة تبوك نجد أنهم على أربعة أقسام :

القسم الأول : من تخلفوا بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ويدخل تحت هذا الصنف علي بن أبي طالب ﷺ .

القسم الثاني : من تخلفوا لعذر ؛ وهم من ذكرهم بقوله : ((وتخلف عن رسول الله النساء والذرية ومن عذره الله من الرجال)) .

القسم الثالث : من تخلفوا كفراً وعناداً ؛ وهم المنافقون .

القسم الرابع : من تخلفوا عصياناً ؛ وذكر هؤلاء الثلاثة : مُرارة ابن الربيع ، وكعب ابن مالك ، وهلال ابن أمية . وجميع هؤلاء لهم مشاهد عظيمة ، فمُرارة وهلال شهدوا بدراً ، وكعب شهد ما بعد بدر . فهؤلاء الثلاثة لم يتخلفوا رغبةً عن نصرة دين الله ولكن استجذبهم الظلال والثمار وهذه الأمور وأخذوا يسوِّفون ويسوفون ويؤخرون إلى أن ذهب الجيش فبقوا في المدينة ، وستأتي في تمام حديث المصنف رحمه الله قصة توبتهم ونزول الآيات الكريمة في ذكر توبة الله ﷻ عليهم لصدقهم مع الله وسلوكهم مسلك الصادقين .

قال رحمه الله :

[فسار ﷺ فمر في طريقه بالحجر ، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا باكين ، وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة ، وما كانوا عجنوا به من غيره يطعموه للإبل ، وجازها ﷺ مقنعاً . فبلغ ﷺ تبوك وفيها عين تبضُّ بشيء من الماء قليل فكثرت ببركته ، مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباركة ، فدعا الله ﷻ فأكلوا منه وملئوا كل وعاء كان في ذلك الجيش ، وكذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرت فشربوا حتى رووا واحتملوا ثم وجدوها لم تجاوز الجيش . في آيات أخَر كثيرة احتاجوا إليها في ذلك الوقت . ولما انتهى إلى هناك لم يلق عدواً ، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم فعزم على الرجوع. وصالحَ ﷺ يحنة بن رؤبة صاحب أيلة وبعث خالداً إلى أكيدر دومة فجيئ به فصالحه أيضاً وردّه ، ثم رجع ﷺ وبعد رجوعه أمر بهدم مسجد الضرار ، وكان قد أخرج من دار خذام بن خالد ، وهدمه بأمر رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخو بني سالم أحد رجال بدر ، وآخر معه اختلف فيه ، وهو المسجد الذي نهى الله

رسوله أن يقوم فيه أبداً . وكان رجوعه من هذه الغزاة في رمضان من سنة تسع ، وأنزل فيها عامة سورة التوبة ، وعاتب الله ﷻ من تخلف عنه ﷺ ، فقال ﷻ : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ **الآية والتي تليها ، ثم قال :** ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٠-١٢٢] ، **فبان لك من هذا واتضح ما اختلف فيه ، وهو أن الطائفة النافرة هم الذين يتفقهون في الدين لصحبتهم رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ، وإذا رجعوا أنذروا قومهم ليحذروا مما تجدَّد بعدهم من الدين ، والله ﷻ أعلم] .**

****

قال : ((**فسار ﷺ**)) ؛ يعني في الطريق متجهاً إلى تبوك.

((**فمر في طريقه بالحِجْر**)) ؛ الحِجْر : ديار ثمود وتُعرف الآن بمدائن صالح ، فهذا المكان هو ديار المعذبين ، ((**فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا باكين**)) ؛ أمرهم عليه الصلاة والسلام أن لا يبقوا في هذه الأماكن وإنما يمرون منها سريعاً ، مثل ما فعل عليه الصلاة والسلام في وادي محسِّر وهو المكان الذي عذَّب الله ﷻ فيه أبرهة وأصحابه الذين جاؤوا لهدم بيت الله الحرام .

وقوله ((**إلا أن يكونوا باكين**)) أي استعاذةً بالله وخوفاً من هذا البلاء والعذاب الذي نال هؤلاء في هذه الديار ، فهي ديار عذاب عُذِّب فيها أقوام وأهلكوا عن آخرهم فيها . فالسنة والهدي عند المرور بديار المعذبين أن لا يمر الإنسان إلا مسرعاً ولا يقف إلا باكياً ، لا يبقى فيها يطبخ الطعام ويجلس .

قال : ((**وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة ، وما كانوا عجنوا به من غيره يطعموه للإبل**)) ؛ يعني لا يأكلوا منه شيئاً .

((**وجازها ﷺ مقنَّعاً**)) ؛ أي وضع على وجهه ﷺ القناع والغطاء ، وكان مسرعاً صلوات الله وسلامه عليه في مروره بهذه الديار ديار المعذبين نظير إسراعه ﷺ في وادي محسر . والحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر وليس عند مسلم ((وجازها مقنعا

)). قال النووي في شرح مسلم : " وَفِيهِ الْحَثّ عَلَى الْمُرَاقَبَة عِنْد الْمُرُور بِدِيَارِ الظَّالِمِينَ وَمَوَاضِع الْعَذَاب ، وَمِثْله الْإِسْرَاع فِي وَادِي مُحَسِّر لِأَنَّ أَصْحَاب الْفِيل هَلَكُوا هُنَاكَ ، فَيَنْبَغِي لِلْمَارِّ فِي مِثْل هَذِهِ الْمَوَاضِع الْمُرَاقَبَة وَالْخَوْف وَالْبُكَاء ، وَالِاعْتِبَار بِهِمْ وَبِمَصَارِعِهِمْ ، وَأَنْ يَسْتَعِيذ بِاَللَّهِ مِنْ ذَلِكَ " .

قال رحمه الله تعالى : ((**فبلغ ﷺ تبوك وفيها عين تبض بشيء من الماء قليل**)) ؛ تبض : يعني تسيل، يخرج منها ماء قليل .

((**فكثرت ببركته**)) ؛ يعني ببركة دعاءه ﷺ .

((**مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباركة**)) ؛ الجيش كان عددهم ثلاثون ألف ، فلما طُلب من كل واحد منهم يأتي بما عنده من طعام ، جاء في بعض الآثار أنه كان الجماعة منهم يتناوبون على تمرة واحدة ، يمصُّها الواحد منهم ويشرب بعدها ماء ثم يعطيها صاحبه يمصها قليلاً ويشرب الماء ويعطيها الثالث يمصها قليلاً ويشرب الماء ؛ فطلب عليه الصلاة والسلام من الجميع كلٌ يأتي بما عنده من الطعام ، فوُضِع على النِطع فكان لا يوازي عنز واحد باركة .

((**فدعا الله فأكلوا منه ، وملئوا كلَّ وعاء كان في ذلك الجيش**)) ؛ دعا الله ﷻ بالبركة لهذا الطعام الذي لا يساوي قدر عنز باركة فصار الجميع – ثلاثين ألف– يأكلون ولما شبعوا أيضاً كلٌ يحمل منه يملأ وعاءه ؛ وهذا من بركة دعاء النبي ﷺ وهو من آيات النبوة .

قال : ((**وكذا لما عطشوا دعا الله ﷻ فجاءت سحابة فأمطرت فشربوا حتى رووا واحتملوا** – أي في الأوعية التي معهم – **ثم وجدوها لم تجاوز الجيش**)) ؛ لما انتهوا وتحركوا من المكان وجدوا أن السحابة التي أمطرت كانت فقط صبَّت على المكان الذي فيه الجيش ؛ وهذا أيضاً من الآيات آيات نبوة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : ((**في آيات أخر كثيرة احتاجوا إليها في ذلك الوقت**)) ومثل هذه الآيات – كما قال أهل العلم– تأتي للحجة وللحاجة ؛ فهذه الآيات هنا جاءت للحاجة ، ومن الآيات ما يأتي لإقامة الحجة على المعاند وإظهار البرهان على صدق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((**ولما انتهى إلى هناك لم يلق عدواً**)) ؛ لأن الروم لما علموا بمقدم النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش ألقى الله ﷻ في قلوبهم الرعب ففروا ودخلوا إلى ديارهم وإلى حصونهم وإلى أمكنتهم وتركوا الأماكن التي كانوا فيها متهيئين لمقاتلة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، قد جاء في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ)) ، وهذه الغزوة من شواهد كثيرة لنصره ﷺ بالرعب .

قال : ((**ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام هذه السنة يشق عليهم فعزم على الرجوع**)) ؛ لكن هذا الذي حصل هو بحد ذاته نصر عظيم وتمكين للإسلام في تلك المناطق وتهيئة أيضاً لفتح ما وراء تلك البلاد ونشر دين الله ﷻ في الأرجاء .

قال : ((**وصالحَ ﷺ يحنة بن رؤبة صاحب أيلة**)) .

((**وبعث خالداً إلى أكيدر دومة فجيء به**)) ؛ قيل أنه كان في الصيد خارج الحصون – لأن الحصون التي لهم في دومة الجندل حصون منيعة جداً – فأدركه خالد ابن الوليد وجماعة معه فأسره وجاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام . ((**فصالحه أيضاً وردَّه ثم رجع ﷺ**)) أي إلى المدينة .

قال : ((**وبعد رجوعه ﷺ أمر بهدم مسجد الضرار**)) ؛ وهو مسجد بناه جماعة من المنافقين بقصد الضرار والإرصاد لمحاربة دين الله ﷻ .

((**وكان قد أخرج من دار خذام بن خالد ، وهدمه بأمر رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخو بني سالم أحد رجال بدر ، وآخر معه اختُلف فيه** – أي اختلف في اسمه – **وهو المسجد الذي نهى الله رسوله أن يقوم فيه أبداً في قوله ﷻ** : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] .

((**وكان رجوعه ﷺ من هذه الغزوة في رمضان من سنة تسع ، وأنزل الله فيها عامة سورة التوبة، وعتب الله ﷻ من تخلف عنه ﷺ فقال ﷻ** : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ **الآية والتي تليها ، ثم قال** : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة :١٢٠-١٢٢] ،

فبان لك من هذا واضح ما اختُلف فيه وهو : أن الطائفة النافرة هم الذين يتفقهون في الدين لصحبتهم رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ، وإذا رجعوا أنذروا قومهم ليحذروا مما تجدد بعدهم من الدين ، والله تعالى أعلم)) .

أيضاً نزل في هذا السياق توبة الله ﷻ على الثلاثة الذين خُلِّفوا ، ومرت معنا أسماءهم . وقصة هؤلاء ولاسيما كعب ﷺ قصة عجيبة جداً ومؤثرة ، حتى أن عبد الله ابن الإمام أحمد رحمه الله يقول : " ما رأيت أبي باكياً إلا عند قراءة قصة توبة الله على كعب ابن مالك " ، والقصة – حقيقة – عظيمة جداً ومليئة بالفوائد وهي في صحيح البخاري في صفحتين أو في ثلاث صفحات .

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى : ((حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، عَنْ عُقَيْلٍ ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ : سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ ، قال : قال كعب : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا ، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغزوة ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ {يُرِيدُ الدِّيوَانَ}، قَالَ كَعْبٌ : فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ

عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ، وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ : " تَعَالَ"، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي : " مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ "، فَقُلْتُ : بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ . فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه

وسلم بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا : نَعَمْ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا : مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا، قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ : لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَأْتِينِي، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ : لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ : فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ

أَخْدُمَهُ؟ قَالَ :لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ ، قَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، قَالَ كَعْبٌ : حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ : " أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ "، قَالَ : قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ : " لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ "، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قُلْت فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْتَلَاهُ

اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي ، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم :{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ : وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : { سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ : فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} قَالَ كَعْبٌ : وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ { وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُو} وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْه .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*